الثغري التلمساني شاعر البلاط الزيّاني

عبد العزيز قيبوج

أستاذ محاضر قسم (ب)

قسم اللغة العربية- تخصص أدب عربي، المدرسة العليا للأساتذة آسيا جبار، قسنطينة، الجزائر

azizka35@ymail.com

ملخص:

إنّ إحياء التراث الثقافي والأدبي الجزائري القديم والتعريف به، تتطلب منا التعريف بشخصياته وعلمائه الذي برزوا في مختلف المجالات العلمية والأدبية،

والثغري التلمساني واحد من الشخصيات البارزة في الأدب الجزائري القديم في القرن الثامن الهجري، ونحاول في هذا البحث التعريف بهذه الشخصية وتحديد طبيعة تجربته الشعرية.

الكلمات المفتاحية: الثغري ، تلمسان الأدب.

Abstrat

The knowledge and definition of the ancient Algerian cultural and literary heritage requires us to define its personalities and scholars who have emerged in the various scientific, literary .

Athghri Telemçani; Tlemcenic One of these prominent figures in the ancient Algerian literature of the eighth century .

Key words Athghri.Tlemcen. literary

1-حياته الإجتماعية:

ورد الحديث عن شخصية التغري التلمساني في أغلب الكتب القديمة والحديثة التي اهتمت بتاريخ الدولة الزيانية، فأوردت نبذة موجزة عن حياة هذا الشاعر وذكرت بعض قصائده، ففي نفح الطيب ن قرأ ما نصه "الفقيه الكاتب العلامة الناظم الناثر أبي عبد الله محمد بن يوسف الثغرى ،كاتب السلطان أمير المسلمين أبي حمو موسى بن يوسف الزياني...."[1] ، ووصفه ابن عمار في النحلة "بالأديب الأجل شاعر الدولة الزيانية، أبي عبد الله محمد بن يوسف القيسي الأندلسي ..." [2]. أما في كتاب البستان فيعرفه ابن مريم بقوله: "سيدي محمد بن يوسف القيسي التلمساني عرف بالثغرى، وصفه المازوني في نوازله بالشيخ الفقيه الإمام العالم العلامة الأديب الكاتب أبي عبد الله أخذ عن الإمام الشريف التلمساني و غيره، لم أقف على تاريخ وفاته" [3]، أما يحي بن خلدون فيذكره في عدة مواضع من البغية: بمحمد بن يوسف القيسي الأندلسي[4].

ومن الكتب الحديثة التي تحدثت عن هذا الشاعر، كتاب تاريخ الجزائر العام لعبد الرحمان الجيلالي الذي يقول فيه: "هو العالم الجليل الكاتب البارع والشاعر المفلق أبو عبد الله محمد بن يوسف القيسي التلمساني المعروف بالثغري، من أشهر شعراء تلمسان وبلغائها المبرزين والمقدمين لدى سلاطينها وملوكها"[(5)]

وترجم له عادل نويهض ما نصه" محمد بن يوسف القيسي التلمساني المعروف بالثغري، أبو عبد الله شاعر أديب كاتب من أهل تلمسان ومن اشهر شعرائها وبلغائها المقدمين لدى سلاطينها، وصفه المازوني بالإمام العلامة العالم الأديب الأريب الكاتب، ووصفه المقري بالعلامة الناظم الناثر، كان من شعراء بلاط السلطان أبي حمو موسى الثاني، له قصائد كثيرة، نقل بعضها يحي بن خلدون في "بغية الرواد"، والمقري في" أزهار الرياض"، وابن عمار في " نحلة اللبيب"[6]

فمجمل الكتب التي تناولت الثغرى التلمساني لم تورد عن حياته إلا عبارات قليلة متشابهة في الغالب، فتذكر اسمه وألقابه وبعض صفاته الأدبية والعلمية، ومن خلال تفحص ما ورد عن حياته في هذه الكتب، يمكن أن نستخلص مايلي:

الثغري التلمساتي هو أبو عبد الله محمد بن يوسف القيسي الملقب بالثغري في بعض المصادر، وفي أخرى بالأندلسي، وأما اسمه القيسي فهو نسبة إلى القبيلة العربية المعروفة "قيس"[(7)].

أما لقب الثغرى فهو الأكثر ورودا في جلّ المصادر التاريخية والأدبية، ويَفْتَرِضُ محقق الديوان أن اسم الثغري غلب عليه سبب كثرة ورود هذه الكلمة في شعره ، مثل قوله في وصف تلمسان[(8)]:

تَاهَـتْ تِلِمْسَانُ بِحُسْنِ شَبَابِهَا وَبَدَا طِرَازُ الحُسْنِ مِنْ جِلْبَابِهَا

فالبِشْرُ يَبْدُو مِنْ حُبَابِ ثُغُورِهَا مُتَبَـسِّمًا أَوْ مِنْ ثُغُــورِ حُـبَابِهَا

وقوله مادحا السلطان الزياني موسى الثاني[(9)]:

مَا عَـابِــدُ الرَّحْمَنِ إِنْ تَسْـأَلْ بِـهِ إلا هِــزَبْرٌ في الكَرِيـهةِ ضَيْغَـمُ

شهمٌ يُعِلُّ*البِيضَ مِنْ مُهَجِ العِدَى والسُّمرَ * في ثَغْرِ النُّحُورِ يُحَكِّمُ

و كذلك قوله في مدح النبي (صلى الله عليه وسلم)[(10)]:

تَلألأَ نُورًا يَفْضَحُ الشَّمْسَ في الضُّحَى فَلَيْسَ لهُ ظِلٌ لَدَى الشَّمْسِ يَسْتَقْرَا

وَيَبْسُمُ عَنْ حَــبِّ الغَمَـــامِ كأنَّــمَا جَوَاهِرُ نُـورٍ أُودِعَـتْ ذَلِكَ الثَّغْـرَا

وكذلك قوله في وصف بلده تلمسان[(11)]:

تَهَلَّل وَجْهُ الرَّوْضِ وابْتَسَمَ الزَّهرُ وغَارَتْ بِهِ فِي أُفْقِها الأَنْجُمُ الزُّهْرُ

وضَاحَكَتِ الأَرْضُ السَّمَاءَ مَسَرَّة وقَابَلَــهَـا مِـنْ كُلِّ رَيحَـانَةٍ ثَغـرُ

أما "آل الثغري" من الناحية التاريخية، "فلم نعثر في الرواية الإسلامية على أية إشارة تلفي ضوءا على أصل بني الثغري، وهم الذين يسمون في الرواية النصرانية (Zegia)، ويقول المستشرق الإسباني (جاينجوس)

مترجم نفح الطيب أن التسمية الفرنجية هي تحريف لكلمة الثغريين، وهم الذين نزحوا من "أراغون" أو الثغر الأعلى (مملكة سرقسطة)، إلى غرناطة بعد سقوطه في يد النصارى، وقد كانت كلمة الثغري فيما يبدوا صفة أو لقبا لكثير من الأسر النازحة من الثغر الأعلى (أراغون) إلى مختلف بلاد الأندلس ولا سيما منذ القرن السادس الهجري، ولهذا نجد عددا من الزعماء يحمل هذا اللقب، على أن هذا التعليل لا يكشف لنا لقب هذه الأسرة الغرناطية الحقيقي، وإنما ينصرف إلى الصفة والشهرة، وهنا لك مايدل على أن آل الثغري، كانو من البربر"[12].

ما يستخلص من هذا العرض التاريخي، وبالنظر إلى الكتب التي تلقبه بالثغري وبالأندلسي أحيانا يمكن أن يكون الثغري من إحدى الأسر التي نزحت من الأندلس على غرناطة ثم إلى تلمسان بسبب الصراع مع النصاري في بداية سقوط الممالك الإسلامية في شمال لأندلس.

ا–مولده ونشأته:

لا تذكر المصادر القديمة أيضا مكان ولا زمان مولده، ولكن الراجح أنه وُلد بتلمسان حيث تنسبه جلّ المصادر إليها، كما أن في شعره ما يوحي بنشأته بتلمسان حيث نظم عدة قصائد في وصفها وذكر طفولته بها، مثل قوله[13]:

كَـمْ غَدَونـَا بِهَا لأُنْسٍ ورُحْـنَا جَادَهَـا رَائِـحٌ مِنَ المُزْنِ غَـادِ
وَلَكُمْ رَوحَةٍ عَلى الدُّوحِ كَادَتْ أنْ تُرِيحَ الصِّبَـا لـنَا وَهُـو غَادِ
رَقَّتِ الشَّمْسُ فِي غَشَايَاهُ حَتَّى أَحْدَثَـتْ مِنْهُ رِقَّـةً فِي الجَمَادِ
جَدَّدَتْ بالغُرُوبِ شَجْوَ غَرِيبٍ هَاجَهُ الشَّوقُ بَعْدَ طُولِ البِعَادِ

فالشاعر يذكر أيام الصبا والشباب بتلمسان، وكيف كان يلهو بين رياضها وبساتينها، ويستمتع بجمال مناظرها وسحر طبيعتها الفاتنة، ويكشف عن كلفه وتعلّقه بتلك البلاد، ويفصح عن مدى شوقه إلى تلك الفترة ، فيرسل لها رسائل الحب والودّ يقول[14]:

يَا حَيَا الـمُـزْنِ حَـيِّها مِـنْ بِـلادٍ غَرَسَ الحُبُّ غَرْسَهَا فِي فُؤَادِي
وَتَـعَاهُـدَ مَـعَـاهِـدَ الأُنْـسِ مِنْـهَا وَعُـهُـودَ الصِّبَا بِصَوْبِ العِهَـادِ
حَيْثُ مَغْنَى الهَوَى وَمَلْهَى الغَوانِي وَمُرادُ الـمُـنَى ونَيْـلُ الـمُـــرادِ

لم تذكر المصادر التي أرّخت للدولة الزيانية وترجمت لحياته تاريخ مولده، ولم تشر إلى ما يدل على ذلك، غير أننا يمكن أن نستنتج الفترة التي عاش فيها من خلال تتبع بعض قصائده التي ذكرت المصادر تواريخ نظمها، من ذلك قصيدة قالها في سنة (761هـ) بمناسبة الاحتفال بليلة المولد النبوي الشريف، ومطلعها[15]:

أُسَائِلُ عَنْ نَجْدٍ وَدَمْعِي سَائِلُ وبينَ صبَا نجْدٍ وَشَوقِي رَسَائلُ

و مولدية عام (766هـ)، مطلعها [16]:

ذَكَرَ الحِمَى فَتَضَاعَفَتْ أشْجَانُهُ شَوْقًا وَضَاقَ بِسِرِّهِ كِتْمَانُهُ

وقصيدة أخرى في المناسبة نفسها عام (768هـ) ، مطلعها[17]:

سَمَا لكَ نُورُ الحَقِّ للحَقِّ هَادِيَا فَخَفَّضْتَ طرفًا عَنْ سَنَاهُ و هَادِيَا

وأنشد ليلة مولد عام (771 هـ)، قصيدة مطلعها[18]:

أَقْصِرْ فَإِنَّ نَذِيرَ الشَّيْبِ وَافَانِي وَأَنْكَرَتْنِي الغَوَانِي بَعْدَ عِرْفَانِ

كما نجد له قصيدة في مدح أبي زيان أبي حمو موسى الثاني *، الذي تولى الحكم عام،(796هـ)[19]، وكان يحتفل بليلة الميلاد كما يفعل أسلافه، ومما نظمه شاعر الدولة الزيانية الثغرى التلمساني قصيدة مطلعها[20]:

تَذَكّرْتُ صُحْبًا يَمَّمُوا الضَّالَ والسِّدْرَا فَهَاجَتْ لي الذِّكرَى هَوى سَكَنَ الصَّدْرَا

إلى قوله في مدح الخليفة أبي زيان[21]:

هي اللَّيلةُ الغَـرَّاءُ جدَّدَ عَهْـدَهَا الإمَامُ أبـو زيَّـانِ بالحَضْرةِ الغَرَّا

إمَامٌ مَـلأ الدُّنيَا تُـقًى وَفَضَـائلاَ وَتَرْتَـجُّ أحْشَاءُ المُلوكِ بِهِ ذُعْـرَا

مَلِكٌ أقَامَ الخَلقُ فِي ظِلِّ عَدْلِهِ وأَضْفَى عَليهِم مِنْ مَلابِسِهِ سِتْرَا

وهي تواريخ يمكن الاعتماد عليها في تحديد الفترة التي عاشها الثغري لأن هذه القصائد تمثل:

-أولا نسبة لا بأس بها من مجموع شعره فهي ست قصائد، من جمله ثمانية عشر قصيدة تضمنها الديوان،

-ثانيا أنها تمتد في فترة زمانية طويلة نسبيا من عام (761 هـ إلى عام 796 هـ)، لذلك يمكن القول أن الثغرى التلمساني كان حيًّا في النصف الثاني من القرن الثامن الهجري.

فالثغري التلمساني لازمَ البلاط الزياني، ومدح حكامه في النصف الثاني من القرن الثامن هجري، أما نشأته فكانت بتلمسان حيث تغنى بجمالها وافتتن بمناظرها ومجد اسمها، فهي الموطن الذي نشأ فيه، والبلد الذي أحبه[22]، وفي ذلك يقول[23]:

كُلُّ حُسْنٍ عَلى تِلِمْسَانَ وَقْفٌ وَخُصُوصًا عَلى رُبَـا العُبَّـــادِ*

ضَحِكَ النُّورُ في رُبَـاهَا وأَرْبَى كَهْفُ ضَحَّاكِهَا عَلى كُلِّ نَـادِ

وَسَمَا تَاجُـهَا عَلى كُـلِّ تَـاجٍ وَسَـطَا فَيْضُـهَا عَلى كُـلِّ وادِ

يَدَّعِـي غَيْرُها الجَمْالَ فَيَقْضِـي حُسْنُها أنَّ تِلكَ دَعْـوَى زِيَّـادِ *

وَبِشِعْرِي فَهِمْتُ مَعْنَى عُـلاهَا مَنْ حَالِها فَهِمْتُ في كُـلِّ وَادِ

فالشاعر كلفٌ بتلمسان مرتبط بها متعلق بمعالمها، فهي موطن الصبا ومهد الطفولة ومرتع الشباب، لدلك لا يفتأ ذكرها في شعره كقوله[24]:

أيُّهَا الحَافظونَ عَهدَ الـوِدَادِ جَدِّدُوا أُنْسَنَا بِبَابِ الجيَّـادِ*

وصِلُوهَا أصَائِـــلاً بليـــالٍ كلآلٍ نُظِمْنَ في الأجْيَـــادِ

في رِيَاضٍ مُنِضَّدَاتِ المَجَانِي بَيْنَ تلكَ الرُّبَا وتِلكَ الوِهَادِ

وَبُـرُوجٍ مُشَيَّـدَاتِ المَـبَانِي بَادِيَاتِ السَّنَا كَـشُهْبٍ بِوَادِ

ولا يكتفي الثغري عند وصفه تلمسان بالوصف الخارجي وذكر معالم المدينة، بل نراه يمتزج نفسيا مع موضوعه، ويبيّن أثر جمال بلدته ومباهجها على حالته النفسية، يقول[25]:

تَاهَتْ تلمسانُ بِدَوْلَتِـهِ عَـلى كُلِّ البِلادِ بِحُسْنِ مَنْظَرِها الجَلِيّ
رَاقَتْ مَحَاسِنُها وَرَقَّ نَسِيمُهَا فَحَلا بِهَا شِعْري وَطَابَ تَغَـزُّلِي
عَرِّجْ بِمُنْعَرَجَاتِ بَابِ جِيَّادِها وافْتَـحْ بِهِ بَابَ الـرَّجَـاءِ المُقْفَلِ
واغْـدُ إلى العبَّـادِ مِنْهَا غَـدْوَةً تُصْبِحْ هُمُومُ النَّفْسِ عَنْكَ بِمَعْزَلِ

ب–تعلّمه:

عند تأمل شعر الثغري نلاحظ سعة ثقافته خصوصا الدينية منها، كما نلاحظ تمكنه من اللغة العربية، واطلاَّعه على الشعر العربي القديم، وشعر معاصريه، وحفظه للقرآن الكريم، ومعرفته للسيرة النبوية الشريفة، ودراسته لعلوم الفقه والحديث والأدب وغير ذلك، فالثغري نشأ في بيئة مزدهرة ثقافيا، حيث اهتم الموحدون ومن بعدهم الزيانيون بالعلم والثقافة اهتماما كبيرا.

نشأ الثغري في تلمسان وتلقى علومه بمساجدها ومدارسها وتتلمذ على يد علمائها وفقهائها، ولعل أشهرهم الشريف التلمساني الذي كان على قدر كبير من العلم والفقه، وكان أحد أبرز المدرسين بتلمسان، وقد تتلمذ على يده أشهر علماء تلمسان وأدبائها مثل ولده أبي محمد عبد الله، والوليّ الصالح إبراهيم المصمودي، ومحمد علي المديوني وأبي إسحاق الشاطبي وابن زمرك، وابن السكاك، وعبد الرحمن بن خلدون، وأخيه يحي وغيرهم[26].

ويظهر أن الثغري أخذ بعضا من العلوم الطبيعية والرياضية كالهندسة والجبر، وأنه أتقن هذه العلوم وتفنن فيها بدليل أنه في مرحلة من مراحل حياته درَّس هذه العلوم لبعض الطلبة، وقصده الطلاَّب رغبة في علمه من أماكن بعيدة حيث يشير إلى ذلك أحد علماء الأندلس وفقهائها ورواتها، وهو أبو عبد الله محمد بن علي المجَّاري*، فذكر الثغري التلمساني من جملة العلماء الذين أخذ عنهم عند رحيله إلى تلمسان لطلب العلم يقول:"...ومنهم (أي أساتذته بتلمسان) الشيخ الفقيه العددي الفرضي الكاتب البارع أبو عبد الله محمد الشهير بالثغري، قرأت عليه كتاب أوقليدس في الهندسة من أوله إلى نصف العاشر منه بلفظي تصورا، وسمعت عليه بقراءة غيري تلخيص ابن البناء*، وكتاب الجبر والمقابلة لابن الياسمين تصورا"[27].

فهذا النص يبين ما بلغه علماء تلمسان في العصر الزياني في مختلف العلوم والفنون، حيث كانوا مقصد الطلاب من كل البلاد وأصبحت تلمسان حاضرة المغرب الأوسط ومركز إشعاع في شتى صنوف العلم والثقافة،

وأنّ ما كان يدرّس بها من علوم لم يكن مقتصرا على العلوم الإسلامية والفنون الأدبية كما قد يتبادر إلى أذهاننا بل تعداه إلى العلوم الرياضية والطبيعية والطب والهندسة وغير ذلك.

ج–اتصاله بالبلاط الزياني:

ظاهرة ارتباط شاعر ببلاط معين أو دولة محددة ظاهرة شائعة في أدبنا العربي في مختلف عصوره، فكثيرا ما نذكر علاقة النابغة الذبياني بملوك المناذرة، أو حسان بن ثابت في اتصاله بالغساسنة قبل إسلامه، وارتباط الأخطل بالحكام الأمويين، وعلاقة أبي تمام بالمعتصم بالله، والبحترى بالمتوكل في العصر العباسي، وتعلُّق المتنبي بسيف الدولة الحمدانية، ولسان الدين بن الخطيب بحكام غرناطة بالأندلس، والأمر نفسه بالنسبة للثغري التلمساني في ارتباطه بالبلاط الزياني، وعلاقته بأبي حمو موسى الثاني وابنيه أبي تاشفين الثاني، وأبي زيان محمد، لذلك يعدّ الثغري شاعر البلاط الزياني بلا منازع، حيث سجّل حضوره في هذا البلاط منذ إحياء الدولة الزيانية على يد موسى الثاني (760–791هـ)، ثم حكم ولديه أبي تاستفين الثاني (791–796هـ) و أبي زيان محمد (796–801هـ) .

عاش الثغري في كنف السلطان أبي حمو وكان هذا الأخير يرعى الأدباء ويجزل لهم العطاء وكان أديبا كما كان شاعرا كبيرا، "فطبيعي أن يعنى بالأدباء والشعراء لعهده، وأن يكون للشاعر محمد بن يوسف الثغرى حظ كبير من هذه العناية"[28].

إن مديح الثغرى لأبي حمو يكاد يكون حاضرا في جل قصائده، بما في ذلك شعر المولديات،ففي قصيدة نظمها عام (761هـ)، يقول مادحا[29].

هُوَ المَلِكُ المَنْصُورُ مُوسَى بنُ يوسُفَ إذَا افْتَخَرتْ يَومَ الفِخَـارِ المَحَافِلُ

إمَامُ الهُدَى سَاقِي العِدَى أَكْؤُسَ الرَّدَى غَمَامُ الجَدَى غَيْثُ النَّدَى المُتَرَاسِلِ

ويظهر شجاعته وإخضاع القبائل لسلطته بقوله[30]:

أيَا مَلِكًـا دَانَتْ بِطَـاعَةِ أَمْـرِهِ جَمِيعُ الوَرَى حتَّى المُلُوكُ القَبَائلُ

وَحَازَ تُرَاثَ المَجْدِ لا عَنْ كَلالَةٍ وَجَـاءَ بِمَا لم تَسْتَطِعْـهُ الأوائِـلُ

و يبيِّن فضله على قومه بني عبد الواد، ودوره في بعثها إحياء أمجادها، وتخليصها من بني مرين ويبرز مكارمه وخصاله بقوله[31]:

بُشْرَى لِعَبْدِ الـوَادِ بالمَلِكِ الَّذِي خَلَصُوا بِهِ مِنْ كُلِّ خَطْبٍ مُعْضَلِ

بِأَعَـزِّهِم جَـارًا وأَمْنَعِهِم حِمًى وَأَجَلِّـهِم مَـوْلى وَأَعَـظَم مُوئَـلِ

بالعَـادِلِ المُنْتَصِرِ المَنْصُـورِ الـمَأْمُـونِ والمَهْدِي والمُتَوَكِّـلِ

وَكَفَى الوَرَى سَعْدًا أبُو حَمُّو الَّذِي يَحْمِي حِمَاهُم بالحُسَامِ الفَيْصَلِ

وبِحُسْـنِ نَيَّتِهِ لَـهُم وَبِجِـدِّهِ وَبِسَعْـدِهِ وَبِسَعْيِـهِ المُتَقَبَّـلِ

بعد موت السلطان موسى الثاني، وانتقال الحكم إلى ابنه أبي تاشفين عبد الرحمن الثاني*، عام (791 هـ)، بقي الثغري وفيا لهذه الأسرة الملكية، إذ نجده يمدح هذا الأخير، ويشيد بفضائلة وخصاله في قوله[32]:

إنْ كان موسى لِلْخِلَافَـةِ بَدْرُهَا   فالتَّــاشْفِنِي شَمْسُهَا وَضُحَاهَا

إنْ كَانَ مُوسَى لِلْخِلَافَةِ صَدْرُهَا   فالتَّــــاشْفِنِي قلبُــها وَحِجَاهَا

إنْ كَانَ موسَى لِلْخِلَافَةِ سُحْبُهَا   فالتَّـــاشْفِنِي غَيْثُــهَا وَنَــدَاهَا

إنْ كان موسَى لِلْخِلَافَةِ لَحْظُهَا   فالتَّـــــاشْفِنِي نُوُرُهَــا وَسَنَــاهَا

لا تَحْسُنُ الدُّنْيَا بِغَيْــرِ ثَلاثَــةٍ   مَا فِي الوُجُودِ إذَا نَظَرْتَ سِوَاهَا

بدرُ الدُّجَي والتّـَاشْفِنِي الرّضَى   والشَّمْسُ في إِشْرَاقِـهَا وَعُـلَاهَا

واصل الثغري حضوره في البلاط الزياني بعد وفاة أبي تاشفين عام(996 هـ)، وتولي أخيه أبي زيان محمد الثاني سدة الحكم، فيذكره مشيدا بفضائله ومكارمه، مبرزا عنايته بإحياء ليلة المولد النبوي الشريف، يقول[33].

هِيَ اللَّيلَةُ الغَرَّاءُ جَدَّدَ عَهْدَهَا   الإمَامُ أبُو زَيَّانَ بِالحَضْرَةِ الغَرَّا

إِمامٌ مَلأَ الدُّنْبَا تُقًى وَفَضَائِلا   وَتَرْتَجُّ أَحْشَاءُ المُلُوكِ بِهِ ذُعْرَا

و يشيد بشجاعته و فضله[34].

إِمَامٌ مَلأَ الدُّنْيَا تُقًى وَفَضَائِلا   وَتَرْتَجُّ أحْشَاءُ المُلُوكِ بِهِ ذُعْرَا

و كان هذا السلطان عالما مقيما للدين *مهتما باالقرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، فقد كتب بيده نسخة من القرآن الكريم، ونسخة من صحيح البخاري، وكتاب الشفا للقاضي عياض.

وفي هذا يقول الثغرى[35]:

فَمَا فِي سَجَايَاهُ الكَرِيمَةِ مُطْعِنٌ   سِوَى أَنَّـهُ بالجُودِ يَسْتَعْبِدُ الحُـرَّا

لَـهُ بِكِتَابِ الله أعْــنَى عِنَـايَةٍ   وبالسُنَّةِ الغَرَّا هو المُغْرَمُ المُغْرَى

فَمَا هَمَّــهُ إلاَّ كِتَــابٌ وَسُنّـَةٌ   بِنَسْخِهِما قدْ أحَرَزَ الفَخرَ والأجْرَا

فَنَسْخُ كِتَابِ اللهِ جَلَّ جَـلالُـهُ   ونَسْخُ البُخَارِي ضَمِانَانِ لَهُ النَّصْرَا

وَمَنْ كَانَ يَعْتَـدُّ الشِّفَا شَفَـاءَةً   فَمِنْ عِلَلِ الأوْزَارِ فِي نَسْخِـهِ يَبْرَا

تَضَــوَّعَ طيبًا حِبْــرُهُ وكتابُــهُ   فَـزَادَ البُخَارِي مِنْ مَبَاخِرِه عِطْـرَا

د–وفاته:

إذا كانت المصادر القديمة لم تذكر تاريخ وفاة الثغري، فإن بعض الباحثين المعاصرين حاول تحديد تاريخ وفاته بالنظر إلى تواريخ نظم قصائده في مدح سلاطين بني زيان، من ذلك ما ذهب إليه عبد الحميد حاجيات، في قوله " لم ينقطع أبو عبد الله الثغري عند مدح أبي حمو الثاني، ثم ابنه أبي تشافين وأبي زيان، ولعلَّه توفي في أوائل

القرن التاسع هجري"[36]، ويقترب شوقي ضيف أيضا من هذا التاريخ في قوله: "لم تذكر المراجع متى توفي، وأكبر الظن أنه توفي في أواخر القرن الثامن أو في أوائل القرن التاسع الهجري"[37].

هـ–آثاره:

وصفت المصادر القديمة الثغري التلمساني بالفقيه الناثر [38]، وأحيانا بالكاتب[39]، ومع ذلك لم تذكر له مصنفات أو مؤلفات نثرية، رغم أن معاصريه من الشعراء لهم مثل هذه التأليفات النثرية من ذلك "بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد" ليحي بن خلدون، و"واسطة السلوك في سياسة الملوك" للسلطان أبي حمو الثاني.

ومجمل ما جمع من آثاره مجموعة من القصائد الشعرية تبلغ ثمان عشرة قصيدة تضم ما يقارب ألف بيت، مبثوثة في الكتب التي أرخت للدولة الزياني *، وقام الدكتور نوار بوحلاسة بجمع هذه القصائد في ديوان وسمه بـ "ديوان ثغري التلمساني"، ونُشر من قِبل مخبر الدراسات التراثية بجامعة منتوري بقسنطينة بالجزائر عام 2004م.

2–حياته الأدبية:

ا–فنون شعره:

الفنون الشعرية التي تطرق إليها الثغري التلمساني محدودة وهي في مجملها مرتبطة بالمديح بحكم ملازمته للبلاط الزياني، فمعظم شعره كان يدور في فلك السلطان، ومعروف عن حكام بني زيان إحيائهم لاحتفالات ذكرى المولد النبوي الشريف، وكان الشعراء يتبارون ويتنافسون في عرض مواهبهم الشعرية من خلال قصائد المديح النبوي التي كانت نتشد ليلة الاحتفال بذكرى المولد النبوي، وتضم تلك القصائد إضافة إلى المديح النبوي، مدح السلطان الحاكم الذي له الفضل في إحياء ليلة المولد النبوي، وللثغري باع طويل في هذا المضمار، فلم يكن يتخلف عن إنشاد مولدياته في هذه المناسبة، كما تطرق شاعرنا إلى أغراض شعرية أخرى بدرجة أقل من ذلك الوصف له قصائد عديدة في وصف تلمسان والتغني بجمال مناضرها، إضافة إلى فن الرثاء حيث ضم ديوانه قصيدة في رثاء والد السلطان الزيانب أبي حمو موسى الثاني.

1–المولديات:

يطغى هذا النوع على شعر الثغري، حيث ضم ديوانه إحدى عشرة مولدية في شكل قصائد عمودية وواحدة في شكل توشيح (مخمسة)، ومولديات الثغري على غرار مولديات معاصريه قصائد مركبة من عدة عناصر أو موضوعات، يكرر أغلب هذه العناصر في قصائده وأهم هذه العناصر هي:

المقدمات:

حيث حافظ الثغري على هذا التقليد الموروث منذ العصر الجاهلي، ويرى حسين عطوان أن الطَّلل "لا يعدو أن يكون ذكريات وضربا من الحنين إلى الماضي والنزوع إليه، فإن الشعراء دائما يرتدّون بأبصارهم إلى الوراء، إلى أعلى جزء مضى وانقضى من حياتهم يوم كانوا في الصِّبا وريعان الشباب لا همَّ لهم ولا شيء يشغلهم سوى العكوف على اللهو والمتعة" [41]، واستمر حضور المقدمات الطللية، في عصور لاحقة،حيث "كان الشعراء

الجزائريون خلال القرن الثامن بوجه عام، وشعراء المولديات بوجه خاص يحلو لهم أن يفتتحوا قصائهم بالنسيب التقليدي، الذي واكب القصيدة العربية ودارجها من عصر امرئ القيس، وكان منتظرا أن يظل النسيب عالقا بمطالع المولديات"[42]، ومن مقدمات الثغري قوله[43]:

ذكرَ الحِمَى فَتَضَاعَفْتْ أشْجَانُهُ شَوْقًـا وضَاقَ بسِـرِّهِ كِتْمَانُهُ
دَنِـفٌ تذكَّــرَ من عُـهُودِ ودَادِهِ مَا لمْ يَكُنْ مِنْ شَأنِهِ نِسْيَانُهُ
يَهْفُو لِبَرْقِ الأبْرَقِيْـنِ تَعَـــلُّلا والقَلْـبُ مِنْـهُ دَائمٌ خَفَقَانُهُ
وَيُسَائلُ الرُّكْبَانَ عَنْ ذاكَ الحِمَى فَتُثِيرُ كَامِنَ وجْـ ـدِهِ رُكبانُـهُ
وَيَرُومُ سِلْـوانَ الهَـوَى فَيُجِـيبُهُ إنَّ المُحَبَّ مُحَـرَّمٌ نِسْـيانُهُ

غير أن شعراء المديح – ومنهم شاعرنا– غالبا ماييستبدلون الطلل التقليدي بذكر الأماكن المقدسة، والرحلة الصحراوية بالرحلة إلى البقاع المقدسة، يقول الثغري[44]:

أُسَائِـلُ عَنْ نَجْـدٍ وَدَمْـعِيَ سَـــائِلُ وَبَيْـنَ صبَا نَـجْدٍ وَشَـوقِي رَسَائِلُ
وَلِي عِنْدَهُم مِنْ صِدْقِ وَدِّي وَسَائِلُ وحَاشَا لدَيهِم أنْ تَخِيبَ الوَسَائِلُ

والشاعر لا يبكي لفراق المرأة على عادة الجاهليين ولا يحنّ إلى أطلالها ومرابعها، فحبه هو النبي محمد (صلى الله عليه وسلم)، وحنينه مشدود إلى الروضة الشريفة وإلى البقاع المقدسة، ومرابع النبوة، كقوله[45]:

سِرُّ المَحبَّةِ بالـــدُّمُوعِ يُتَرجَمُ فالـدَّمْعُ إنْ تسْألْ فَصِيحٌ أعْجَمُ
والحَالُ تَنْطقُ عَنْ لِسَانٍ صَامِتٍ والصَبُّ يَصْمُتُ والـهَوَى يَتَكَّلَمُ
كَمْ رُمْتُ كِتْمَانَ الهَوَى فَوَشَى بِهِ جَفْـنٌ يَنِمُّ بِكُـلِّ سِـــرٍّ يُكْـتَمُ
وَصْـلُ الأحَبَّةِ لَـو يُتَاحُ وِصَـالُهُمْ شَـهْدٌ وهـجرَانُ الأحَبَّـةِ عَلْـقَمُ

إلى قوله[46]:

هَلْ مِنْ سَبِيلٍ للسُّرَى حَتَّى أرَى مَغْنًى بِهِ لأُولَى السَّعَادَةِ مَغْنَمُ
مُتَنَزِّلُ الوَحْـي الَّذِي يُتْلَى فَلا سَمْعٌ يُمَـلُّ ولا لِسَـانٌ يَسْأمُ

حسن التخلص:

عادة ما يخلُص الثغري من المقدمات بمختلف أشكالها تخلصا سلسا إلى الموضوع الرئيس في المولدية المتمثل في مدرح الرسول (صلى الله عليه وسلم)، والإشادة بفضل ليلة مولده، وعرض مكارم النبي، وذكر المعجزات التي كرمه المولى (عز وجل) بها، ورجاء شفاعته، كقوله[47]:

شَرَفُ النُّـــفُوسِ طِـلابُهَا لِعُـــلاهَا وَلِبَاسُهَا التَّقْوى أَجَلُّ حُـلاهَا
فِيـــهَا تَنَـــالُ العِـزَّ في الدُّنْـــيَا إذَا دَانَتْ بِها والفَوْزَ فِي أُخْـرَاهَا
فأخْلَعْ لبُوسَكَ مِنْ سِوَى ثَوْبِ التُّقي مَاللنُّفُوسِ حِلىً سِوَى تَقْواهَا

وبعد مقدمة حكمية في الحديث عن النفس وأحوالها، وضرورة التزام التقوى، والتوبة إلى الله، ينتقل إلى وصف الرحلة إلى البقاع المفدسة، بقوله[48]:

مَنْ لي بِنَفْسٍ تَـدَّعي طَلَبَ العُـلا قَـوْلاً فيُثِيبث فِعْلُهَا دَعْـواهَا

مَنْ لِي بِنَفْسٍ تَمْتَطِي خَطرَ السُّرَى لِتَرَى مُنَاها عِنْدَ خَيفِ *مِناهَا

إلى قوله [49]:

أوَمَـــا تَرَاهُم كالــقَسِيّ ضَوَامِــرٌ والرَّكْبُ مِثْلُ النَّبْلِ فَــوقَ ذُرَاهَا

دَأَبُوا عَلَى السَّيرِ الحَثِيثِ وحَثَّهُم شَـوْقٌ يَذُودُ عَنِ الجُفُونِ كَرَاهَا

ثم يخلص إلى المديح النبوي، فيقول [50]:

حتَّى بَدَا القَمَرُ الذِي لَوْلَاه مَا بَدَتِ النُّجُـومُ ولا بَدَا قَمَرَاهَا

قَمَـرٌ بِيَثْرِبَ أَشْرَقَتْ أَنْــوَارُهُ حَتَّى أَضَاءَتْ أَرْضَهَا وسَمَاهَا

فالشاعر يحسن التخلص من موضوع لآخر، إذ نحس بالسلاسة والعفوية، وحسن الربط بين عناصر المولدية، وقد تحدث النقّاد عن حسن التخلص وجعلوه من مظاهر قدرة الشاعر على التحكم في عناصر موضوعه، وحسن بناء قصيدته، فابن طباطبا يرى أن "الأبيات التي تخلّص بها قائلوها إلى المعاني التي أرادوها ضمن مديح أوهجاء أو افتخار أو غير ذلك، ولطفوا في صلة مابعدها فصارت غير منقطعة عنها" [51].

وقد يتخلص الشاعر من المقدمة إلى الموضوع الرئيس، بأسلوب نحوي كأسلوب الشرط، في مثل قوله [52]:

إذَا ابْيَضَّ فُودِي زَادَ طَبْعِي رِقَّةً كما وصَفُوا البيضَ الرِّقاقَ من الهندِ

وَلَــكِنَّنِي أَبْكِي لِــزَلَّاتِي التِي تجاوزتُ فيها منتهَى الحَصْرِ والحَـدِّ

وَإنَّــي وإنْ كَانَتْ ذُنُوبِـي كَثِيرَةً وآثَــرْتُ غَيِّي إذْ تَعَامَيتُ عَنْ رُشْدِي

لأَرْجُو شَفِيعَ المُذْنِبِين مَحَمَّـدًا يَشَفِّـعُهُ المَولَى فَيَـشْفَعُ في الــعَبدِ

نَبِيٌ تَسَمَّى أحْمَـدًا وَمُحَمَّــدًا وَأَطْـنَبَ فِيهِ الوَحْـيُ بالمَدْحِ والحَمْدِ

فالشاعر وظف أسلوب الشرط للربط بين المقدمة الطللية، والموضوع الرئيس، فجعل جملة الشرط في وصف حالته النفسية، وما يشوبها من غي وضلالة، وجعل جملة الجواب مدخل للتخلص إلى مدح النبي (صلى الله عليه وسلم).

الموضوع الرئيس:

يخلص الشاعر إلى المديح النبوي فيذكر الصفات الخِلقية والخلقية التي اتصف بها النبي محمد (صلى الله عليه وسلم)، كقوله[53]:

أجَلُّ بُدُورِ الرُّسْلِ نُــورًا وَبَهْجَـةً وأَجْمَلُ خَلقٍ رُئِي فِي حُلَّةٍ حَمْرَا

وأَصْدَقُ مَنْ فِي عَالَمِ الكَونِ لَهْجَةً وأَكْرَمُهُم فِعْلاً وأَشْرَفُهُم ذِكْــرًا

وأَطْهَــرُهُم قَلْبًا وأكْـــرَمُهُم تُـقىً وأشرحُهُم صَدْرًا و أرْفَعُهُم قَدْرًا

وغالبا ما يعمد إلى سرد المعجزات والخوارق التي ظهرت عند ميلاد النبي (صلى الله عليه وسلم)، أو التي أكرمه الله بها بعد بعثته، كقوله[54]:

وآيَاتُــهُ كالشُّهْــبِ نُــورًا وَكَثْــرَةً أتُحْصَرُ أو تُحْصَى عَنِ العَدِّ أنْجُمُ

وَقَدْ أجْمَعُوا مِنْهَا عَلى ألْفِ مُعْجِزٍ رَوَى بَعْضَــهنَّ التَــرْمِذِي ومُسْــلِمُ

وَأَعْظَمُهَا الـقُرْآنُ يَــزْدَادُ جِــدَّةً بِطُولِ المَدَى تِـكْرَارُهُ ليسَ يُسْأمُ

ولا ينسى رجاء العفو وطلب المغفرة من الخالق (عزّ وجلّ)، والشفاعة من النبي (صلى الله عليه وسلم)، يقول[55]:

مَدَدْتُ يَدِي يَا ذَا المَعَارِجِ رَاجِــيًا وَأصْبَحَتْ آمَــالي إلَيْــكَ حَــوَادِيَا

عَسَى جُودُكَ الفَيَّاضُ يُدْنِي وَسَائِلي وَيُنْشِي مِنَ العفْـوِ العَميمِ غَــوَادِيَا

وَيَفْتَــحُ لي بَابًا إلى مَنْهَــجِ التُّــقَي فَأَلْقَى التَّداني يَـومَ ألْقَى التَّنَــادِيَا

لَدَى مَوقِفٍ يَوْمَ الحِسَابِ وَهَــوْلِهِ يَسُومُ الوَرَى كَرْبٌ يُشِيبُ النَّواصِيَا

هُنَــاكَ يَنَادَي اشفَعْ تُشْفِعْ مُحَمَّدُ وَسَلْ مَا تَشَا تُعْطَ المُنَى والأمَانيَا

فَيُنْقِــذُنا مِنْ ذَلِكَ الهَوْلِ جَــاهُــهُ وَيُحْجِــزُنا عَنْ زَفْــرَةِ النَّــارِ وَاقِــيَا

فالمولدية عند الثغري تسير على النمط الذي رسمه الشعراء السابقون لفن المديح النبوي، كما هو الحال عند الشقراطسي، والبوصيري، والصرصري، وابن جابر الأندلسي وغيرهم، وتتضمن غالبا عناصر محددة، فالمديح النبوي، ومنه المولديات يضم جملة من الموضوعات تعدّ "امتدادا لما جاء به البوصيري، ففي بردته التي ظلّت مرجعا لمن تلاه، قد تناولت البردة الموضوعات الآتية:

- النسيب النبوي
- التحذير من هوى النفس
- مدح الرسول الكريم
- التحدث عن مولده
- التحدث عن معجزاته
- التحدث عن القرآن الكريم
- التحدث عن الإسرا و المعراج
- التحدث عن جهاد الرسول صلى الله عليه و سلم و غزواته
- التوسل و التشفع

- المناجاة و التضرع[56]

فهذه الموضوعات التي تبنى عليها المدحة النبوية نجد أن أغلبها يتكرر في مولديات الثغري، والملاحظ أن المغاربة والأندلسيين غالبا ما يضيفون عنصرا آخر وهو إظهار الشوق والحنين إلى البقاع المقدسة، ووصف الرحلة إلى البقاع المقدسة، "فكان لحنين المغاربة وتشوقهم للأماكن المقدسة لون خاص، نبع من بعد بلادهم عن الحجاز، وما يتجشمونه في الرحلة إليه، فكان الوصول الى الأماكن المقدسة عندهم غاية لا تدرك، وأمنية الأماني وخاصة في الأوقات التي ينقطع فيها الطريق، وتحفّه المخاطر في البر والبحر" [57].والمولدية أيضا لكونها مديحا نبويا ينظم بمناسبة ذكرى المولد النبوي الشريف تحت رعاية السلطان الحاكم فهي تتضمن عنصرا آخر أساسيا وهو مدح السلطان الحاكم الذي كان له شرف إحياء هذه المناسبة الدينية.

2-المديح:

يشغل هذا الفن مساحة هامة في ديوان الثغري سواء أكان ذلك في المولديات أو الوصف أو قصائد خاصة بمدح السلطان، والمعروف أن فن المديح من أكثر الأغراض الشعرية انتشارا في الشعر العربي، وهو فن الثناء والإكبار والاحترام، قام بين فنون الأدب مقام السجل الأدبي لجوانب من حياتنا التاريخية، إذ رسم نواح عديدة من أعمال الملوك وسياسة الوزراء، وشجاعة القواد وثقافة العلماء، فأوضح بعض الخفايا، وأضاف إلى التاريخ- صادقا أو كاذبا- ما لم يذكره التاريخ[58].

ويمكن تعليل كثرة المديح في شعر الثغري بالدواعي الآتية:

أ/ ارتباط الثغري بالحكام الزيانيين، وليس من وسيلة لنيل عطف هؤلاء وكسب رضاهم إلا بمدحهم، خصوصا إذا علمنا أن البلاط الزياني كان يعجُّ بالشعراء المداحين الذين كان يسعون للتقرب من الحكّام عن طريق المدح والثناء.

ب/ أنّه كان يتحمل مسؤليات في الدولة الزيانية، فهو كاتب الدولة أحيانا، ومسؤول الخراج، وغيرهامن المسؤوليات الأمر الذي يجعله يشعر بالامتنان لمن منحه تلك المناصب.

ج/ كون المديح تقليدا ملازما للشعراء فلا يمكن للشاعر أن يذيع صيته ويشتهر أمره إلا إذا كان من مداح الملوك والأمراء، ولهذا نجد الثغري يتحين كل فرصة مواتية لينظم قصائده في مدح حكام بني زيان.

كان الثغري يضفي على ممدوحه القيم المعروفة في المديح العربي من كرم وشجاعة وفصاحة وقهر للأعداء، من ذلك قوله مادحا موسى الثاني[59]:

أَحْيَا الوَرَى بالغِنَى والأمْنِ فَانْدَفَعَتْ عِنَايَــةُ المَيْتَتَانِ الفَقْرُ والحَـذَرُ

فَالجُودُ غَيثٌ عَلَى الأقْوَامِ مُنْسَكِبٌ والأمْنُ ظِلٌّ عَلى الإسْلامِ مُنْسَتِرُ

وغالبا ما يجمع الشاعر بين وصف الطبيعة وصفات الممدوح، فينتقي من صور الطبيعة وعناصرها ما يجسد تلك صفات، "ففي شعره مسحة جمالية، وخيال واسع،... فيستخدم الطبيعة سبيلا إلى ممدوحه، شأنه في ذلك شأن الأندلسيين"[60]، كقوله[61]:

لَهُ جُيُـوشٌ لَهَا نَـارٌ مُضَرَّمَـةٌ وَقُودُهَـا النَّـاسُ لَكِنْ مَنْ لَهُ ضَرَرُ
نَعَمْ، وَفِيها لِمَنْ وَالاهُ مَنْفَعَةٌ كَالسُّحْبِ يُوجَدُ فِيها النَّارُ والمَطَرُ
يَقُودُنَا مَلِكٌ فِي بُـرْدِهِ مَـلَكٌ فِي دِرْعِهِ أَسَـدٌ فِي تَاجِـهِ قَمَـرُ

فممدوحه يدفع الكرب والضرر، ويجلب الغنى والأمن فهو كالغيث، جيشه نار على الأعداء وبرد وسلام على الموالين، وهو ملَك تجسَّد في صورة ملِك، لكنَّه أسدٌ في شجاعته وإقدامه، وقمر في إشراقه وضيائه.

وممدوحه يسوس البلاد بحكمة واقتدار، ويديرها بعقل راجح وبصيرة نافذة، يقول[62]:

يَا إمَامَ الهُدَى وشَمْسَ المَعَالِي وَغَمَامَ النَّدَى وَبَدْرَ النَّوَادِي
لَكَ بَيْـنَ المُلُـوكِ سِرٌ خَـفِيٌّ لَيْـسَ مَعْـنَاهُ لِلْـعُـقُولِ بِبَادِ

و غالبا ما يضفي على ممدوحه صبغة دينية ومسحة إيمانية مقدسة، لها أثرها البالغ في جمهور السامعين، فيصفه بالإمام المؤيد من المولى عزوجل ،كقوله[63]:

إِمَـامٌ تَـوَلَّى اللهُ تَشْيِيدَ فَـخْرِهِ فَمَا شِئْتَ مِنْ مَجْـدٍ وَمِنْ كَرَمٍ عُـدِّ
هُمَـامٌ حَبَـاهُ اللهُ عِـزَّةَ نَصْـرِهِ فَلِلَّهِ مِنْ نَصْـرٍ عَـزِيزٍ وَمِنْ عَضْدِ
لَهُ السَّعْدُ والسَّعْيُ الجَمِيلُ مُلازِمُ وَنَاهِيكَ مِنْ سَعْيٍ جَمِيلٍ وَمِنْ سَعْدِ
لَهُ الجُودُ أضْحَى أمَّـةً فِيهِ وَحْدَه كَمَا أَنَا فِي مَدْحِي لَهُ أمَّـةً وَحْدِي

وغالبا ما يتجاوز شعراء المديح الحديث عن صفات الممدوح إذا كان من الحكام، والقادة إلى الإشادة بقدرته العسكرية، وقوة جيوشه، وتمجيد انتصاراته، وذكر أسلحة الجيش، وكل ما يتعلق بالمجال العسكري، كقول الثغري في مدح جيش أبي تاشفين الثاني[64]:

لَهُ العَسْكَرُ الجَرَّارُ يَجْلو قُتَامَهُ أسِنَّتُهُ كالشُّـهبِ في الظُّلَـمِ الرُّبَـدِ
كَرَوْضٍ وَلَكِنَّ السُّيوفَ جَـدَاولُ وَسُمْرُ قَنَا الخَطِّيِّ كَالقُضَبِ المُلْـدِ
كسُحْبٍ وَلَكِنَّ السُّيوفَ بُرُوقُهَا إذَا مَا انْتَضُوهَا والصَّواهِلُ كالرَّعْدِ
يُعِدُّ إلى الأعْـدَاءِ كُلَّ كَتِيـبَةٍ بِهَا الجُرْدُ *تُرْدِي والفَـوَارِسُ كالأُسْدِ

فالشاعر قدم صورة فنية أنيقة امتزجت فيها عناصر الطبيعة بعناصر الجيش فالأسنة كالشهب، والسيوف جداول، والقنا كالقضب، والصواهل رعد.

أما خاتمة المدحة فيستغلها الشاعر لتقديم قصيدته هدية إلى السلطان الحاكم، في شكل روضة معطرة بالمديح، يقول[65]:

وَدُونَكَ رَوضًا مِنْ ثَنَائِكَ عَاطِرًا فَمَا لِثَنَاكَ العَاطِرِ النَّـدِّ مِنْ نِدِّ

أو يستغل مناسبة عرضه مدحتة للإفتخار بشاعريته، والإشادة بقدرته الأدبية، ويرى أفضلية شعره على شعر غيره، وهذا يدل على كثرة الشعراء في عصره، وحالة التنافس الشديد بينهم في البلاط الزياني، كقوله[66]:

إلَيْكَــهَا مِنْ مُجــيدٍ خَيْرَ قَافِيَّةٍ   لَوْ أَنْصَفُـوهَا لمَا فَاهُوا ولا شَعـرُوا

مَا كُلُّ مَنْ يَتَعَاطَى الشِّعْرَ يُحْسِنُه كلاَّ وَهَلْ تَسْتَوِي الحَصْبَاءُ والدُّرَرُ

وأحيانا تكون هذه الهدية (القصيدة)، كبكر عذراء ببدو عليها الخجل والحياء، أو كالنجم في إشراقها والدرّ في قيمتها، وأنه ما كان ليجيد الشعر لولا إحسان الملك وفضله عليه، فكرم المودوح وجوده هو ما ألهم الشاعر نظم القوافي، يقول(67):

ودونَــكَ أبْكَـارَ القَـوافِي فإنْ بدَا   عليهَا حياءٌ فَهُو منْ شيـمةِ العَذرَا

مُنَضَّـدةً بيـضَ الـوجوهِ تخالُــها   على صفحةِ الطَّرسِ الدَّراريَ والـدُّرَّا

وما كنتُ أدري النَّثرَ والنَّظمَ قبلهَا   فعلَّمــنِي إحسانُك النَّـظمَ والــنثرَا

تولّاكَ مــن أولاكَ بالعِـزِّ والبــقا   وأولاكَ في الدُّنيَا رضاهُ وفي الأُخرَى

وإمعانا منه في إظهار تعلقه بممدوحه، يجعل من خاتمة قصيدته مناسبة للتعبير عن فضل الممدوح وكرمه، أملا في استمرار هذا الفضل والكرم، يقول(68):

ودونكَ سِلــكًا من النّـظْمِ رائـقًا   وأُلــبِسَ بُـردًا بالسَّـعادةِ ضَـافيَا

وما كنتُ أدري الشِّعرَ قِدمًا وإنَّما   تعلَّمتُ من تلكَ المعالي المعانيَا

فلولا حُلاكم أو عُلاكم لما غَدَتْ   تطاوعُنِي مهما دعـوتُ القَـوَافيَا

3–الوصف:

الوصف باب جليل في الشعر، لايكاد يخلو منه غرض من الأغراض فالمديح وصف للمدوح والغزل وصف للمرأة، والشعر العربي راجع في أصله إلى الوصف إلا قليل منه (69)، ولا يكون الشاعر بارعا في الوصف، إلا إذا كان ذا خيال قادر على ترجمة المشاهد والعواطف وإبرازها من خلال التراكم الثقافي في صور بارعة موحية (70)، ولشاعرنا باع طويل في هذا المضمار، ففي شعره الكثير من المقاطع الوصفية الرائقة التي وظفها في مولدياته خصوصا عندما يستعرض وصف الرحلة إلى البقاع المقدسة، ووصف أخلاق النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) وفضائله، أو وصف ممدوحيه من حكام بني زيان، وله قصائد مستقلةفي الوصف قصرها كلها على وصف بلده، فقد كلف بموطنه "تلمسان"، وتعلق به فنظم فيه القصائد الحسان، من ذلك قوله(71):

قـمْ فاجتلِي زمنَ الرَّبـيعِ المقبلِ   ترَ ما يَسرُّ المُجـتنِي والمُجتلِي

وانشقْ نسيمَ الرَّوضِ مطلولاً وما   أهـداكَ من عَـرفٍ وعُرفٍ فاقْـبلِ

وانظـرْ إلى زهـرِ الـرَّياضِ كأنَّـهُ   دُرٌ علـى لبَّـاتِ رَبَّـاتِ الـحـلِي

إلى قوله(72):

تاهتْ تلمسانُ بدولتِه على   كلِّ البلادِ بحُسنِ منظرِهَا الجَلِي

يصف الشاعر جمال فصل الربيع في تلمسان، وما في جناته ورياضه من أزهار جميلة وثمار يانعة، ونسيم عليل معطر بعبق ورودها، ثم ينقلنا في رحلة إلى ربوع تلمسان، فيعرفنا على أشهر معالمها، في قوله[73]:

عرِّجْ بمنعرجاتِ بابِ جيادِها وافتـحْ به بابَ الـرجاءِ المُقـفَلِ

واغدُ إلى العُبَّادِ منـها غُـدوةً تصبحْ همومُ النَّفسِ عنكَ بمعزلِ

وضريحُ شيخِ العارفينَ شعيبُها زُرْه هنـالكَ إنَّـهُ نعـمَ الـــولِّي

فمـزارُهُ للـدينِ والـدُّنيا مـعاً فيـهِ ذنوبُك أو كـروبُك تنـجلي

يذكر الشاعر بعض المعالم بتلمسان القديمة منها باب الجياد، ويدعونا إلى زيارة ضريح العالم الصوفي أبي مدين شعيب التلمساني*، مبينا مشاعر الارتياح والسعادة التي يشعر بيها الزائر لذلك المعْلَم الديني، ثم يذكر معالم أخرى منها الحدائق الغناء، والروابي الحسناء، يقول[74]:

وبكهفِها الضحَّاكِ قفْ متنزهًا تسرحْ جفونُك في الجمالِ الأجملِ*

وتمـشَّ في جنبـاتِها ورياضِـها واجنـحْ إلى ذاكَ الجـناحِ المخضَّلِ

وَبِرَبْوَةِ العـشَّاقِ سلوةُ عَاشِقٍ فَتَنَتْه ألـحاظُ الغَـــزالِ الأكْـحلِ

بنواسمٍ وبـواسـمٍ مـن زهـرِهَا تهـديك أنفاسًا كـعُرفِ المنـــدلِ*

و ينصح بزيارة واد الصفيصف[75]:

واعمَدْ إلى الصَّفِصَيفِ يومًا ثانيًا وبـهِ تَسَلَّ وعنـهُ دأبًا فاسْـأَلِ

ويذكر فوارة تلمسان ومائها الفضّي العذب، يقول:[76]

واقصدْ بيومٍ ثالثٍ فـــوارةً وبعذبِ منهلهَا المُبَارَك فانهلِ.

فالوصف في شعر الثغري يسير فيه على نمط شعراء المغرب والأندلس الذين "يتناولون موصوفهم في هدوء وطمأنينة وكأنهم يتأملون ما حولهم في فتور و بطء..."[77].

4-الرثاء:

للثغري قصيدة واحدة نظمها في رثاء أبي يعقوب يوسف، والد السلطان الزياني أبي حمو موسى الثاني، بدأها بمقدمة حكمية أشار فيها إلى تقلب أحوال الدنيا وتغيرها من حال إلى حال فيتداخل فيها الخير بالشر والمكروه بالمحبوب، محذرا من غرورها وعدم ثباتها، يقول[78]:

المرءُ في الدُّنيَا رهـينُ خُطُوبِ والدَّهرُ أفْصَحُ منْ خِطَابِ خَطِيبِ

مَنْ صَاحبَ الدُّنيا الدنيةَ لم تزلْ تأتِيـهِ بالمَكـروهِ في المَـحبوبِ

ومؤمّـلِ الأيَّامِ ليْـسَ بحاصـلٍ إلاَّ عـــلى أمـلٍ بهـا مَكْـذوبِ

ثم ينتقل إلى التأبين مستعرضا فضائل الفقيد ومناقبه، خصوصا ما تعلق منها بالتمسك بالدين القويم، يقول[79]:

جَمَعَ الفَضَائلَ باخْتِلافِ ضُرُوبِها فغدَا بها فردًا بغيرِ ضَـريبِ
أَعْظِـــمْ بهِ من زَاهِدٍ ومُجَاهِـدٍ ومُنـيلِ رَفْـــدٍ تـارَةً ومُـنِيبِ
من دأبِـهِ الـدِّينُ المَتِينُ ولم يَزَلْ من كُلِّ فَضْلٍ آخِذًا بَنِصِيبِ

وهو في رثائه ينحو منحنى الشعر القديم، في ذكر حزن الطبيعة على الفقيد، وتألمها لفقده، فتبدى مظاهر التهجم والتقطيب بقوله[80]:

وتَغَيّرَتْ شَمْسُ النَّهارِ لهُ أسىً وتبدَّلتْ مـن نُـورِها بِشُحُـوبِ
وعَلَتْ على وجهِ الزَّمانِ كآبةٌ والبِشـرُ بُـدِّلَ مِنـهُ بالتَّقْطِـيبِ
جفَّتْ يَنَابيعُ النَّدى من بَعْدِهِ والجُودُ أَجْدَبَ منهُ كلُّ خَصِيبِ

ويختم قصيدته بالتعزية للتخفيف من أثر الفجيعة، مخاطبا نجل الفقيد السلطان موسى الثاني راجيا منه أن يتحلّى بالصبر الجميل، طالما أن رحمة الله تتغمد والده الفقيد، وأنَّه سيكون خير خلف لخير سلف، قوله[81]:

فَتَعَـزَّ يا مَـولايَ عنـــهُ فإنَّـهُ قـدْ فَـازَ مِنْ مـولاهُ بالمرغوب
واخْـتَارَ دارَ الخُلدِ من دَارِ الفنَا بَدَلاً كَـذَلكَ فِعْـلُ كُـلِّ لَـبِيبِ
ولقـدْ أطـابَ النَّـفسَ أنَّ وفـاتَه في العِزِّ تَحْتَ رِوَاقِهِ المَضْرُوبِ
ومضَى وخَلَّفَ منكَ خيـرَ خليفةٍ للخلقِ مرغوبِ النَّدى مرهـوبِ
مَا ماتَ مَنْ أضحى لمثلِك مُنجِبًا يا خيرَ نَجْلٍ في المُلُوكِ نَجِيبِ

النتائج:

-نشأ الثغري في بيئة مزدهرة ثقافيا، حيث كانت تلمسان- المدينة التي تعلم بها- عاصمة للزيانيين ومن أبرز الحواضر الثقافية بالمغرب

-يعد الثغري اهم شعراء الدولة الزيانية والشاعر الأول للبلاط الزياني، حيث لازم البلاط الزياني مدة طويلة وسجل شعره أبرز الأحداث التي عاشتها دولة بني زيان، خصوصا في عهد أبي حمو موسى الثاني

-برع الثغري التلمساني في شعر المولدبات وظل بنظم مولدياته لفترة طويله ولا يتخلف عن المشاركة في هذه المناسبة الدينية والأدبية.

المراجع والإحالات:

(1) -المقري التلمساني أحمد بن محمد: نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب، تحقيق إحسان عباس المجلد 7،دار صادر، بيروت 1388 هـ-1968م، ص121.

(2) -ابن عمار: نحلة اللبيب بأخبار الرحلة إلى الحبيب، ص 132.

(3) -ابن مريم محمد التلمساني: البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر، 1986، ص 222-223.

(4) -ابن خلدون يحي: بغية ذكر الملوك من بني عبد الواد، ج1، ص 87.

(5) -الجيلالي: تاريخ الجزائر العام ج2، ط4، 1980، ص 216-217.

(6) -عادل نويهض: معجم أعلام الجزائر، ص32

(7) -الثغرى: ديوانه ص 19.

(8) -المصدر نفسه، ص13.

(9) -المصدر نفسه، ص 132.

*السّمر: الرّماح

(10) -الثغري: ديوانه، ص 74.

(11) -المصدر نفسه، ص 66.

(12) -محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس، العصر الرابع، نهاية الأندلس، مكتب الخانجي، القاهرة، ط4، 1417هـ، 1997م، ص 166.

(13) -الثغرى: ديوانه،ص 47، 48.

(14) -المصدر نفسه، ص48.

(15) -ابن عمار: نحله اللبيب بأخبار الرحلة إلى الحبيب، ص 133

(16) -المصدر نفسه، ص 132.

(17) -المصدر نفسه، ص 137

(18) -المصدر نفسه، ص 153.

*هو السلطان أبو زيان محمد الثاني، بن السلطان أبي حمو موسى الثاني، تولى الحكم ستة 796هـ، بعد وفاة أخيه أبي تاشفين،كان أبو زيان عالما أديبا متأنقا في شعره، بليغا في ترسله، قتل سنة 805هـ، ينظر: عبد الرحمن الجيلالي: تاريخ الجزائر العام،ج2، ص190، 191، 192.

(19) -التنسي محمد عبد الله: تاريخ بني زيان ملوك تلمسان، مقتطف من نظم الدر والعقبان في بيان شرف بني زيان، ص 210.

(20) -الثغري: الديوان، ص72.

(21) -المصدر، ص 86، 87، 88.

(22) -الطمار، تاريخ الأدب الجزائري، ص 138.

(23) -الثغري، ديوانه، ص 48، 49.

*أي إدعاء باطل كإدعاء نسب زياد بن أبيه إلى معاوية

(24) -الثغري، ديوانه، ص46.

*باب الجيّاد: أحد أبواب تلمسان.

(25) -الثغرى، ديوانه، ص 113.

(26) -المصدر السابق، ص 163.

*هو الشيخ الإمام المقرئ الحاج الرحّال الأستاذ المتفنن الراوية خاتمة الرواة بالأندلس أبو عبد الله محمد بن الشيخ الوزير أبي عبد الله محمد بن علي بن عبد الواحد المجاري ينظر: السخاوي شمس الدين الذين محمد بن عبد الرحمن، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، دار مكتبة الحياة بيروت لبنان، ج4،ص 18.

*تلخيص أعمال الحساب لأبي العباس أحمد بن البناء المراكشي، نشرته الجامعة التونسية بتحقيق الدكتور محمد السويسي سنة1969م (المطبعة الرسمية بتونس).

(27)-المجاري الأندلسي أبو عبد الله محمد: برنامج المجاري ، تحقيق: محمد أبو الأجفان، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ص 137.

(28) -شوقي ضيف: تاريخ الأدب الغربي عصر الدول والإمارات، دار المعارف القاهرة مصر، ط1، 1990م، ص 139.

(29) -الثغري: ديوانه، ص107.

(30) -المصدر نفسه، ص 108.

(31) -المصدر السابق، ص 118.

* هو السلطان أبو تاشفين عبد الرحمن الثاني بن أبي حمو موسى الثاني، ولد بندرومة عام (752هـ) تولى ولاية عهد المملكة ستة(776هـ)، كان مواليا لبني مرين إلى أن قضى على والده سنة (791هـ)، فتولى الحكم برعاية بني مرين وحمايتهم، توفي سنة (796هـ) ينظر : تاريخ الجزائر العام، عبد الرحمن الجيلالي، ص188. 189

(32) -الثغري: ديوانه، ص 165-166.

(33) -المصدر نفسه، ص 86

(34) -المصدر السابق، ص 87

*وفي عنايته بالدين يقول التنسي:" تصرف في شبيبته بين دراسة معارف، و إفاضة عوارف، و كلف بالعلم حتى صار منهج لسانه و روضة أجفانه، فلم تخل حضرته من مناظرة، ولا عمرت إلا بمذاكرة ومحاضرة، فلاحت للعلم في أيامه شموس، وارتاحت للاستغراق فيه نفوس بعد نفوس، فنسخ رضي الله عنه بيده الكريمة نسخا من القرآن الكريم وحبسها، و نسخة من صحيح البخاري، ونسخا من الشفا لأبي الفضل عياض حبسها كلها بخزانته التي بمقدم الجامع الأعظم بتلمسان المحروسة، التي هي من مآثره الشريفة المخلدة من ذكره الجميل ما سرت به الركبان، لما أوقفت عليها من الأوقاف الموجبة للوصف بجميل الأوصاف، و صنف كتابا نحا فيه منحى التصوف سماه (كتاب الإشارة في حكم العقل بين النفوس المطمئنة و النفوس الأمارة.....)، ينظر: محمد بن عبد الله التنسي، تاريخ بني زيان ملوك تلمسان مقتطف من نظم الدر و العقبان في بيان شرف بني زيان، ص 211.

(35) -الثغري، ديوانه، ص 88-89

(36) -حاجيات، أبو حمو موسى حياته وآثاره، ص 173.

(37) -شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي، عصر الدول والإمارات، ص141.

(38) -المقري، نفح الطيب، المجلد 7 ص 121.

(39) -ابن مريم، البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، ص 222.

* من هذه الكتب

- زهر البستان في دولة بني زيان، لمؤلف مجهول، بقي هذا الكتاب مخطوطا لمدة طويلة بمكتبة مانشيستر بالمملكة المتحدة رقم 283، و قام بتحقيق الجزء الثاني منه الأستاذ بوزياني الدراجي، نشر من طرف مؤسسه بوزياني للنشر والتوزيع، السحاولة، الجزائر سنة 2013م تضمن هذا المخطوط المحقق مؤخرا أربعة قصائد للثغري التلمساني.

- بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، ليحي بن خلدون تضمن سبع قصائد

- نظم الدر والعقبان في بيان شرف بني زيان، لمحمد المقري، عبد الله التنسي، حقق جزء فيه محمود بوعياد تحت عنوان: تاريخ بني زيان ملوك تلمسان تضمن أربعة قصائد

- نفح الطيب من غصن الأندلس الطيب، لأحمد بن محمد المقري التلمساني وعنه قصيدتان للثغري.

- ازهار الرياض في أخبار عياض، للمقرى، وفيه قصيدتان للثغري.

- نحلة البيب بأخبار الرحلة إلى الحبيب، لأبي العباس سيدي أحمد بن عمار وفيه خمس قصائد للثغرى.

- تاريخ الأدب الجزائري لمحمد الطمار فيه قصيدتان.

فبعض القصائد وردت في أكثر من مصدر وبعضها أنفرد بها مصدر بعينه.

(41) -حسين عطوان: مقدمة القصيدة العربية في الشعر الجاهلي،(د،ط)، دار المعارف، 1986م،ص227.

(42) –عبد الملك مرتاض: مقال: حركة الشعر المولدي في تلمسان على عهد أبي حمو الثاني مجاه الأصالة، وزاره التعلم الأصلي والشؤون الدينية، الجزائر، السنة 4 عدد 26 جويلية أوت 1975، ص 322.

(43) –الثغري: ديوانه، ص 148.

(44) –المصدر السابق، ص 99.

(45) –المصدر نفسه، ص 123

(46) –المصدر نفسه، ص125.

(47) –المصدر نفسه، ص 160

(48) –الثغري: ديوانه ص 160.

*الخيف: ما انحدر من غلظ الجبل وارتفع عن سيل الماء والمقصود هنا منحدر مِنَى.

(49) –الثغري: ديوانه، ص 161.

(50) –المصدر نفسه، ص 161.

(51) –ابن طباطبا، عيار الشعر، تح: طه الحاجري ومحمد زغلول سلام، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة، 1956م، ص111.

(52) –الثغري، ديوانه، ص 54،55.

(53) –الثغري: ديوانه، ص 73.

(54) –المصدر نفسه، ص 135.

(55) –المصدر نفسه، ص 169-170.

(56) –الغزي بدر الدين محمد: الزبدة في شرح البردة، تحقيق عمر موسى باشا الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر، 1981، ص 43 و ما بعدها.

(57) –محمود سالم محمد: المدائح النبوية حتى نهاية العصر المملوكي، دار الفكر، دمشق، سوريا، ط1، 1417هـ، 1996م، ص182.

(58) –سامي الدهان: المديح، دار المعارف، القاهرة، ط2، ص 5.

(59) –الثغري: ديوانه، ص 62.

(60) –الطمار: تاريخ الأدب الجزائري، ص183.

(61) –الثغري: ديوانه، ص63.

(62) –المصدر السابق، ص50.

(63) –المصدر نفسه، ص 57-58.

(64) –المصدر نفسه، ص 58.

*الجرد والأجرد هو الفرس السبَّاق

(65) –الثغري: ديوانه، ص61.

(66) –المصدر نفسه، ص 65.

(67) –المصدر نفسه، ص 90-91.

(68) –المصدر نفسه، ص 173.

(69) –ابن رشيق: العمدة، ج2، ص 294.

(70) –عبد النور جبور: المعجم الأدبي، دار العلم للملايين، بيروت، لبان، ط5، 1981، ج 2، ص 294.

(71) –الثغري: الديوان، ص 112.

(72) –المصدر نفسه، ص، 113.

(73) –المصدر نفسه، ص 113.

*أبو مدين شعيب: هو الشيخ الصالح قطب العارفين و شيخ المشايخ، أبو مدين شعيب بن الحسين الأنصاري، نشأ في أشبيليا، و أجاز البحر إلى المغرب فأخذ العلم بفاس على يد الشيخ أبي الحسن علي بن حرزهم و لبس الخرقة عن الشيخ أبي عبد الله الدقاق، وسلك على شيخ المشايخ أبي يغزي

رضي الله عنه، إلى أن وصل و حقق و أدرك، استوطن بجاية فاشتهر بها خبره و علا في مقام الولاية صيته فعرف بمكانته يعقوب المنصور بن يوسف العسري بن عبد المؤمن بن علي و أرسل إليه سنة 594 هـ فشق ذلك على تلاميذه، فقال لهم إني لا ألقاه، فلما بلغ قرية بتلمسان فسأل عن اسمها فقبل العبّاد، فقال أي موضع هو للرقاد، فمرض يومئذ ومات ودفن هناك، و قبره (رضي الله عنه) بالعبّاد قرب تلمسان ما يزال إلى الآن مزور ومحجوج، ينظر : ابن خلدون أبو زكريا يحي بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد ج1، ص 125-126.

(74) -الثغري: ديوانه، ص 114.

*كهف الضحَّاك: مكان سياحي يقصده الناس للتنزه، يقع بضواحي تلمسان على قمم إحدى جبالها.

*المندل: من عود الطيب.

(75) -الثغري: ديوانه، ص 115.

(76) -المصدر نفسه، ص 115.

(77) -كونثلالث بلا نشيا: تاريخ الفكر الأندلسي، تعريب حسين مؤنس، ط1، القاهرة، 1956م،ص 29.

(78) -الثغري، الديوان، ص 39.

(79) -المصدر نفسه، ص 40.

(80) -المصدر نفسه، ص 41-42.

(81) – المصدر نفسه، ص 44-45.